مأساة الأكراد

أصول البرنامج

لم تبتسم الأقدار لأصدقاء أمريكا في ربيع عام 1975. ففي ذات الوقت الذي تخلى فيه الكونغرس عن شعوب الهند الصينية لترزح تحت نير الشيوعية، ترك شاه إيران كرد العراق عاجزين عن الدفاع عن أنفسهم في وجه النظام الراديكالي في بغداد، الذي كان حتى في ذلك الحين خاضعا لسيطرة صدام حسين، وإن لم يكن يرأسه رسميا.

كانت الولايات المتحدة تقدم المساعدة للأكراد منذ عام 1972، رغم أن حجم تورطنا هناك كان لا يذكر مقارنة بالوضع في الهند الصينية. لكن بينما كان بالمستطاع منع سقوط الهند الصينية ـ على الأقل خلال عام 1975 – عبر تقديم العون لحلفائنا الذين لهم كل الحق بتوقعه، فإن إنقاذ الأكراد كان يتطلب فتح جبهة جديدة في جبال وعرة قاحلة قرب الحدود السوفييتية. الالتزام المفتوح الواسع النطاق، بعواقبه غير المضمونة، كان يجب تقديمه بينما تنهار الهند الصينية، وتضعف العلاقات بين الشرق والغرب، وتقف المفاوضات في الشرق الأوسط في طريق مسدود. وكل ذلك من أجل دعم القيام بـ «عملية سرية»، بينما يزداد زخم هجمات الكونغرس على أية فكرة تتصل بمثل هذه الأنشطة.

لكن بخلال بضعة شهور، سيصبح مصير الأكراد واحدا من تلك الأحداث المتضمنة في عملية جلد الذات التي سعت فيها نرجسية السبعينيات إلى التكفير عن المبالغة في التفاؤل التي ميزت حقبة أوائل عقد الستينيات. هاجمت لجان الكونغرس إدارة نيكسون بسبب دورها في محاولة مساعدة الأكراد على تحقيق الاستقلال الذاتي، وإدارة فورد على عدم منعها شاه إيران من التخلي عن هذا الجهد المشترك. كانت تلك طريقة استخدمها بعض من تحملوا مسؤولية التخلي عن الهند الصينية لتعذيب ضميرهم.

مأساة الأكراد فرضها التاريخ والجغرافيا، لكن فاقمتها أيضا انقساماتنا على المستوى الوطني. لقد ظل الشعب الكردي، الذي يزيد عدده الآن على خمسة وعشرين مليونا، ضحية للأحداث التي يعود تاريخها إلى قرون. ومنذ قيام الدول – الأمم في الشرق الأوسط عند نهاية الحرب العالمية الأولى، وجد الأكراد

أنفسهم مقسمين بين العراق وإيران وسوريا وتركيا، إضافة إلى الاتحاد السوفييتي السابق. إذ وعدوا بدولة مستقلة، لكن تم تجاهل مطلبهم بحق تقرير المصير الوطني حين رسمت القوى الأوروبية حدود الشرق الأوسط بعد الحرب العالمية الأولى. ومنذ ذلك الحين، هددت المطامح الوطنية الكردية لحمة الدول المضيفة، التي تفاوتت علاقاتها المحتملة مع الولايات المتحدة: بعضها ـ مثل تركيا ـ كانت حليفة؛ بعضها الآخر ـ مثل العراق ـ مالت للعداوة؛ إيران تبنت الموقفين معا في فترات مختلفة؛ بينما أمكن لسورية أن تصف نفسها بأنها محايدة. وهناك دول أخرى ـ مثل إسرائيل والأردن ـ تدخلت بين الحين والآخر لأسباب جيوسياسية، وكوسيلة لإضعاف خصومها ـ أي العراق على وجه العموم (انظر الخريطة).

كان لتدخل أمريكا أسباب إيديولوجية واستراتيجية في آن معا. فالتراث «الولسوني» (نسبة للرئيس الثامن والعشرين وودرو ولسون 1913 ـ 1921) كان يدفعنا باتجاه دعم وتأييد حق تقرير المصير للشعب الكردي، إلا أنه أفرز ما سيعرف بالمعضلة السياسية الدائمة لأمريكا: القيود المحددة لالتزام أمريكا الأخلاقي في منطقة نائية ووعرة ويصعب الوصول إليها، مثل المقاطعات الجبلية الكردية، وسط دول تؤثر إلى حد كبير في المصالح القومية الأمريكية. إذ كيف يمكن العثور على نقطة التوقف بين الدعم الكامل لطموحات وتطلعات الأكراد والتخلي عنهم في منطقة تمثل المفصل الاستراتيجي للهلال الشرق أوسطي الغني بالنفط والخليج العربي؟

كان العامل الذي عقد المسألة يتمثل في أن المساعدة الأمريكية لا يمكن تقديمها إلى المناطق الكردية إلا عبر «قِمَع» الأراضي التابعة لدولة متحالفة مع الولايات المتحدة ـ إيران في عهد الرئيس فورد، وتركيا في عهد الرئيس كلينتون. لكن لم يشارك هذان البلدان في الهدف الأمريكي المتمثل في منع أي نظام شيوعي أو مارق من السيطرة على المناطق الكردية، إلا إلى نقطة معينة. إذ لم يكن لإيران في السبعينيات، ولا لتركيا في التسعينيات، أدنى مصلحة في إثارة المشاعر القومية الكردية إلى حد التأثير في السكان الأكراد في كل منهما، ولم تكن أي منهما مستعدة لإعطاء أقليتها الكردية دولة مستقلة. في ذات الوقت، اعتبرت كل منهما ذات أهمية محورية للاستراتيجية الأمريكية العامة.

كان من المتعذر اجتناب حقيقة أن الازدواجية المتناقضة قد ميزت، ثم هيمنت في نهاية المطاف على الجهود الأمريكية في المناطق الكردية في العراق. فالدول المجاورة، مثل تركيا أو إيران، كانت ستدعم الكرد لتحويل وجهة الضغوط العراقية عن أراضيها لكنها لم تكن مستعدة قط للموافقة على إقامة دولة قومية كردية. ولنفس السبب، امتنعت إدارات نيكسون وفورد وبوش وكلينتون عن تأييد استقلال الأكراد العراقيين، ناهيك عن الأكراد في الدول المجاورة. إذ سعت كلها للجمع بين الاستقلال الذاتي الكردي والحفاظ على وحدة وسلامة الأراضي العراقية، مخافة أن يطلق تفكك العراق عقودا من الاضطراب والفوضى مع احتراب الدول المجاورة للحصول على الغنائم. وبعد تحول إيران إلى دولة أصولية معادية بزعامة آية الله الخميني على وجه الخصوص، اعتبرت سلامة ووحدة الأراضي العراقية الثقل المقابل للمطامح الإيرانية.

Areas with Kurdish Populations
Caspian Sea
SOVIET UNION
Black Sea
Tbilisi
Yerevan
TURKEY
Lake Van
Van
Tabriz
Diyarbakir
Lake Urmia
IRAN
Mosul
Karkuk
SYRIA
Bakhtaran
Baghdad
JORDAN
IRAQ
SAUDI ARABIA
KUWAIT
0 100 miles
0 100 kilometers

كان لا بـد لتفاعـل هذه الأهداف المتعارضـة أن يؤدي إلى خيبة الأمل بل حتـى لمأساة الأكراد. وهذا مـا حدث في آذار/مارس عام 1975 حين توصلت إيران والعراق إلى اتفاقية متبادلة طفت فيها المصالح الوطنيـة للدولتين المجاورتين على فكرة الاستقلال الذاتي الكـردي. وتكرر الأمر عام 1996، حين قلص صـدام حسين إلى حد كبير مناطق الحكم الذاتي الكردي التي أقيمت تحت الحماية الأمريكية في أعقاب حـرب الخليج عـام 1991، وذلك عندما تحالف معه أحـد الفصائل الكردية لدحـر منافسيه المدعومين مـن قبل أمريكا. وبرأيي، كانت لإدارة فورد أسباب أكثر وجاهة لعدم توسيع التزامها تجاه الأكراد مقارنة بـإدارة الرئيس كلينتون – لكن المثالين كليهما يوضحان الحدود والقيود والتعقيدات المحيرة التي لازمت اهتمامنا بأراضي الأكراد النائية.

لم تبتكر إدارتا نيكسون وفورد الدعم الخارجي للمطامح الكردية بالحكم الذاتي كما زعمت كل منهما عـادة، بل هما أول من وضع المـوارد الأمريكية خلف هذه المطامح والتطلعات بصورة مباشرة. ولأننا كنا نقـدم الدعم لجماعة إثنية ضد حكومتها الشرعية، ولأن هناك دولا أخرى متورطة معنا (خصوصا إيران وإسرائيـل)، توجـب أن تكون «العملية سرية» ـ أي في تلك المنطقـة الرمادية الفاصلة بين القوة السافرة والدبلوماسيـة. ترجع جذور تورطنا المباشر مع الأكراد إلى زيارة نيكسون إلى الشاه في أيار/مايو 1972، فـي أعقـاب القمة التي عقدها مع بريجنيف فـي موسكو. إذ لم يغير أسبوع من كـرم الضيافة السوفييتية احتفـالا بانفـراج العلاقات بين البلدين أولويات نيكسون الاستراتيجيـة. وبرغم تعزيز الانفراج، لم يتخلَّ عن مسعاه للتمتع بالحد الأقصى من مساحة المناورة للتنافس السياسي العالمي مع الاتحاد السوفييتي.

إحـدى هذه المنافسـات كانت تجري في العراق، علـى عتبة شاه إيران. القضيـة الرئيسية تمثلت في التوجـه السياسي المستقبلي لدولة تحتل المرتبة الثانية ـ بعد السعودية ـ في احتياطها النفطي، وبالتالي تمتلـك موارد قادرة على تهديد التوازن فـي الشرق الأوسط وخصوصا في منطقة الخليج. في عام 1968، استلـم حزب البعـث، الذي التـزم محليا ببرنامـج اشتراكي راديكالـي، وجاهر بالعـداء العنيف للغرب، السلطـة في بغـداد. ولم يكن من المفاجئ أن يقترب العراق بقيادة صـدام حسين من الاتحاد السوفييتي فـي وقـت أكد فيه وجود خمسة عشـر ألف جندي وخبير سوفييتي في مصر خطـر خضوع الشرق الأوسط برمتـه للنفوذ الاستراتيجـي السوفييتي. ومهما كانت حالـة الانفراج، فقد اعتبرنـا تقليص حجم النفوذ السوفييتي هدفا مركزيا لاستراتيجيتنا. وفي الحقيقة، نظرنا إلى الانفراج باعتباره وسيلة لتجنب مخاطر تلك الاستراتيجية.

الـدول التي اعتبرت نفسها الأكثر تعرضا لتهديد التوجـه العراقي هي الأردن وإيران، اللتان تشتركان بحدود طويلة مع العراق، وإسرائيل، المحاذرة دوما من الأنظمة العربية الراديكالية الجديدة التي يدعمها السلاح السوفييتي. الدول الثلاث كانت صديقة للولايات المتحدة، وجميعها تقدم معونات سرية للأكراد.

كما استخدمت مسعاهم للحكم الذاتي في المنطقة الجبلية الوعرة في شمال العراق كورقة ضغط لتحويل طاقات وموارد النظام البعثي بعيدا عن حدودها. وبالرغم من أننا لم نسهم مباشرة في هذا العون السري، إلا أن وكالاتنا الاستخبارية كانت تتلقى المعلومات عنه من قبل نظيراتها في كل من الدول المعنية. بالطبع كانت جميعها تتلقى المساعدات الاقتصادية والعسكرية من الولايات المتحدة.

للحظة عابرة بدا وكأن العراقيين والأكراد قد وجدوا صيغة لحل لخلافاتهم. ففي الحادي عشر من آذار / مارس 1970، تم التوصل إلى اتفاق بين بغداد والزعيم الكردي مصطفى البرزاني. ووافقت الحكومة البعثية على تحويل العراق إلى دولة متعددة الإثنيات مؤلفة من قوميتين رئيسيتين، العرب والكرد. وأعدت الترتيبات لتعيين كردي في منصب نائب الرئيس؛ وللغة الكردية لتصبح لغة رسمية؛ وللتمثيل الكردي المناسب في البرلمان العراقي الجديد.

وفي الأشهر التالية، أظهرت الاتفاقية مدى تأثير الخلافات حول تعريف الحكم الذاتي، كما يحدث عادة عند محاولة تحصيص السلطة بين المجموعات الإثنية المتناحرة. فبالنسبة للبرزاني، كان الحكم الذاتي يعني الاقتراب من الاستقلال الفعلي، بينما تعامل صدام حسين مع الاتفاقية بوصفها خطوة تكتيكية على طريق تطبيق النموذج البعثي على شكل دولة مركزية واحدة.

وبحلول خريف عام 1971، وصلت العلاقات بين الأكراد وبغداد إلى نقطة الانهيار مرة أخرى. وحمل الأكراد صدام حسين مسؤولية محاولة اغتيال البرزاني، كما ضاعف صدام شكوكهم عبر الاتجاه نحو تشكيل حكومة وحدة وطنية ضمت الحزب الشيوعي. الأمر الذي عزل الأكراد، فاستأنفوا حرب العصابات، بدعم من إيران وإسرائيل. في تشرين الثاني / نوفمبر 1971، ومرة أخرى في آذار / مارس 1972، ناشد الشاه نيكسون التعاون معه في مساعدة البرزاني. وفي الثامن والعشرين من آذار / مارس، لعب ملك الأردن دور الوسيط لنقل طلب مباشر من البرزاني إلى نيكسون . وظلت إسرائيل تبلغنا بمخاوفها وقلقها من توجه السياسة العراقية واهتمامها بتحقيق الحكم الذاتي في المناطق الكردية، رغم عدم طلبها المباشر للأموال اللازمة لذلك.

رفضنا التماسات المعونة المباشرة لأننا لم نكن نريد زيادة تدفق السلاح من الاتحاد السوفييتي، وتوسيع انتشار نفوذه. حذر جوزيف فارلاند، السفير الأمريكي في طهران، من مغبة أن تصبح العملية السرية لمساعدة الأكراد ذات نهاية مفتوحة حالما تنطلق، وأن تغدو، إذا ما توقفت، عرضة «لإساءة التفسير بشكل مؤسف».

دفعتنا زيارة قام بها رئيس الوزراء السوفييتي ألكسي كوسيغين لبغداد في نيسان / أبريل 1972، إلى إعادة النظر بسياسة عدم التدخل المباشر التي اتبعناها. وفي التاسع من نيسان / أبريل، وقع معاهدة صداقة مع العراق تضمنت، حتى في غياب التدخل الأمريكي إلى جانب الكرد، فقراتٍ توجب تقديم مساعدات عسكرية

ضخمـة. وبالتالـي كان العراق يحول نفسه إلى تحـد جيوسياسي، ويتجه ليغدو حليفـا رئيسيا للسوفييت في المنطقـة. وحين لقيت القوات العراقية الدعم والتشجيع من السلاح السوفييتي، صعدت حدة هجماتها على الأكـراد لتتجـاوز المستوى الذي يمكـن موازنته بالمعونات السريـة الإيرانية والإسرائيليـة. وتبع ذلك وقوع صدامات مسلحة بين القوات العراقية والإيرانية على طول الحدود المشتركة بين البلدين.

هـذا هـو الوضع في المنطقة حين زار نيكسون الشـاه في طهران يومي 30 ـ 31 أيار / مايو 1972. كنا جميعـا منهكين بسبب الجهد العاطفي والبدني الذي بذلناه في قمة موسكو، التي نجح نيكسون في عقدها برغم قصف وحصار فيتنام الشمالية، حليفة السوفييت ـ قبل أسبوعين من الموعد المقرر لزيارته وستة أشهر من الانتخابات الرئاسية.

المبالغة في كـرم الضيافة الإيرانية ضاعفت من إرهاق الوفد والصحفيين المرافقين. وتبدت إحدى عواقـب هـذا الإرهاق حين رفع نيكسون كأسه ليشرب نخب الشاه في حفل العشاء الفاخر الذي أقامه على شرفه. فقد كانت أضواء كاميرات التلفاز مبهرة جدا. بحيث منعت الرئيس من قراءة خطابه المعد سلفا، خصوصا وقد رفض لبس نظارته أمام الكاميرا. ولذلك قرر أن يرتجل، وهو أمر برع فيه باستثناء الخاتمة المناسبة التي بدت وكأنها تزوغ منه. دار حول الموضوع بضع مرات، ثم استطاع في نهاية المطاف العثور علـى الفكـرة الرئيسة: نظر إلى الشاه مباشرة، وذكّر ملك الملوك بـرأي الرئيس أيزنهاور الذي أشار فيه إلـى أن كل أعضاء مجلس الشيـوخ الذين عرفهم تزوجوا رغما عنهم. وبتلك الروح، اختتم نيكسون كلامه منتصـراً واقترح شرب نخب صاحب الجلالـة والإمبراطورة الجميلة الواقفة إلـى جانبه. وصفق الجانب الإيراني بدون حماسة (على أفضل تقدير).

لكـن غاب المرح والتسلية حالما بدأ نيكسـون والشاه مراجعة الوضع العالمي. وأظهر نيكسون، العائد لتـوه مـن موسكو حيث شرب الأنخـاب السخية في الكرملين، أنـه الرئيس الأمريكي الأقـل عرضة لغواية العلاقـات الشخصية مـع زعيم القـوة الشيوعية العظمى. وأعـاد التأكيد في ملاحظاتـه الافتتاحية على عزمـه للوقوف إلى جانب أصدقاء أمريكا وتصميمه على وقف المغامرات السوفييتية في الشرق الأوسط. وبالرغـم من مسعانا لمنع تصعيد الصراعات الإقليمية وتحولهـا إلى مواجهات عالمية، إلا أننا لن نسمح بأيـة تغيـرات تطال ميزان القوى في العالم أو في الشرق الأوسط. وفـي الحقيقة، سوف نكافح في الشرق الأوسـط لجعـل الكفة تميل لصالحنا من خلال إظهار استحالة تحقيـق الأهداف العربية عبر الراديكالية العربية أو السلاح السوفييتي. وأقحمت في الحوار ملاحظة تشير إلى أننا لن نقبل بـ «الانفراج الانتقائي»، الـذي عرفتـه بوصفـه «حلولا لبعض القضايـا مع بعض الخصوم لكـي نعزل الآخرين.. لقـد سعينا لجعل السوفييت يدركون أهمية ذلك». ثم أوجزت جوهر مخططنا بعد سنة، في تموز / يوليو 1973 في واشنطن، حين رد الشاه الزيارة:

نحن نحاول كبح وإحباط نفوذ السوفييت في أي مكان ظهر فيه وإنهاكهم في أية مغامرات يسعون إليها. نريد خلق إطار فكري في المكتب السياسي يشير إلى أن الاتحاد السوفييتي مرهق من الأنشطة المكلفة التي لا تؤتي أكلها في الشرق الأوسط.

لذلك وجد الشاه في نيكسون أذناً صاغية حين عبر عن قلقه من أن «يقوم السوفييت بتأسيس تحالف يضم الكرد، والبعثيين، والشيوعيين؛ وبالتالي تصبح المشكلة الكردية مصدر قوة للشيوعيين بدلا من أن تكون شوكة في جنبهم».

اتخذ نيكسون قرارين اثنين نتيجة لهذا الحوار مع الشاه. فمن أجل إبطال تأثير صفقة الأسلحة التي عقدت بين كوسيغن وصدام، وافق على بيع طائرات عالية الأداء طلبها الشاه لكن أوقفتها الخلافات البيروقراطية داخل البنتاغون حول تسليم طائرات «ف 15» (القوات الجوية) أو «ف 14» (البحرية). ووجد نيكسون حلاً للمسألة عبر الموافقة على تسليم الطرازين وترك أمر الاختيار النهائي بينهما إلى الشاه (وهذا هو أصل الإشاعة الكاذبة التي تقول بأن نيكسون أمر البنتاغون بإعطاء الشاه ما يريد. والأمر يقتصر فقط على الاختيار بين طائرات «ف14» و«ف 15»).

في ذات الوقت، توصل نيكسون إلى نتيجة مفادها أن الانتفاضة الكردية الحالية ضد حكومة بغداد سوف تنهار بدون الدعم الأمريكي. كما أن المشاركة الأمريكية بأي شكل كانت تعتبر أمراً مطلوباً للحفاظ على الروح المعنوية لحلفاء أساسيين، مثل إيران والأردن، مهما بلغ يأس دوافعهم، وباعتبارها إسهاما في توازن القوى في المنطقة.

تمثل هدفنا في رفع تكلفة فرض العراقيين لنظامهم، وزيادة قدرة الأكراد على المساومة، وبالتالي حث بغداد على ممارسة سياسة أكثر احتراما للمخاوف الأمنية لجيران العراق والحكم الذاتي للأقلية الكردية. كان من المعتقد أن المشاركة الأمريكية هي المفتاح: سوف تؤدي إلى تساوق وتلاحم بين الأهداف المتعارضة أحيانا التي يسعى إليها المسهمون الآخرون بالمال، حيث يعزو كل منهم أهمية كبيرة لعلاقاته مع الولايات المتحدة، وإلى منعهم من التخلي عن الأكراد ـ وثبت أن هذا الحكم مبالغ في التفاؤل كما سنرى.

التناقضات الداخلية

منذ أن جعلت لجنتا تشرش وبايك المكلفتان بالتحقيق في الأنشطة الاستخبارية الموضوع شهيراً وذائعاً وفي متناول الجمهور عبر التلفاز، والسينما، والصحافة المطبوعة، جرى تصوير وكالات المخابرات الأمريكية باعتبارها مؤسسات متعصبة ومصممة على التشبث بأساليب الحرب الباردة، ولا يمكن أن تخضع للسيطرة السياسية، ومتلهفة دائما وأبدا للمخاطرة بمواطن القوة والمصالح الأمريكية في سبيل مسعاها لتحقيق مخططاتها المسعورة عادة. إن وجدت وكالة مخابرات مركزية كهذه، فقد كانت مخفية

عن الأنظار طيلة عهدي الرئيسين نيكسون وفورد. إذ إن العمليات السرية الرئيسية كافة في تلك الحقبة ـ تشيلي، الأكراد، أنغولا ـ قد أمر بها البيت الأبيض وتم القيام بها كعمليات سرية وذلك لعدم وجود تصنيف دبلوماسي علني لها. فقد اندلعت انتفاضة الأكراد على أرض دولة ذات سيادة وحليفة للاتحاد السوفييتي، كما كانت تتلقى الدعم السري من مجموعة من الدول المتحالفة مع الولايات المتحدة، والمعونات المالية من جانبنا. واجهنا خطر التصعيد، لكن هناك في المقابل مخاطرة السماح لصدام حسين بتعزيز وتقوية حكمه، وتحويل المنطقة الكردية من العراق إلى قاعدة تخريب تؤثر في المناطق الكردية في كل الدول المجاورة. ومع مرور الوقت، أصبح هذا التخريب الهدام، مدعوما بالنمو السريع للقوات المسلحة العراقية، خطرا كامنا يمكن أن يتحول إلى سلاح قوي يتهدد دول الخليج، وإيران، وحتى تركيا.

عند استعادة أحداث الماضي، تبدو الحجج المضادة للقرار بدعم الانتفاضات الكردية أكثر توازنا واتزانا وإقناعا مما بدت في حينها. فلربما كان علينا إجراء تحليل أكثر دقة للدوافع اليائسة التي حركت التحالف المعادي للعراق، إلى جانب العواقب الناتجة عن قفز أحد الشركاء من السفينة. والأهم من كل ذلك، كان علينا أن نفهم بشكل أفضل حقيقة أن الأكراد شركاء يمكن أن يغيروا رأيهم وتحالفاتهم بسرعة، وأن من الصعب أن يشكلوا جزءا من استراتيجية عمل شمولية. وبغض النظر عن مزاعم وادعاءات زعمائهم، فمن المؤكد أن هدفهم الرئيسي هو الحصول على الاستقلال أو الحكم الذاتي الكامل على أقل تقدير، ولسوف يقاومون على الدوام تحديد أولوياتهم ضمن علاقتها بمفهوم القوى الخارجية حول التوازن الجيوسياسي. ومن الأمتع، كما تعلمنا، أن نسمع عن الأبطال لا أن نتعامل معهم؛ فنفس الخصال التي تلهمهم الشجاعة تجعلهم أيضا متصلبين يفتقدون المرونة.

لكن حتى فائدة إدراك طبيعة الحدث بعد وقوعه سوف تتركنا أمام اختيار قهري لم يتغير كثيرا منذ ربع قرن: الامتناع عن العمل والتصرف قد يسبب انفراط عقد التحالف القائم المعادي للعراق، ويترك الأكراد تحت رحمة صدام حسين، ويضعف معنويات دول الخليج؛ في حين أن التزامنا بالعمل قد يحملنا عبء نفس المعضلة المؤلمة على طول الطريق إذا زاد السوفييت توريد الأسلحة بصورة كبيرة تتجاوز المستويات الراهنة. في الاختيار بين الخطر اليقيني الأكيد والخطر الحدسي المحتمل، ينزع الخطر البعيد لأن يبدو أكثر جاذبية. وفي واقع الأمر كان هذا قرارنا عام 1972. ففي الأول من آب / أغسطس 1972، وقع نيكسون أمراً توجيهيا بالبدء بالبرنامج السري(*). خصصت الولايات المتحدة مبلغ 250 ألف دولار في الشهر معونةً مباشرة في السنة المالية 1973، إضافة إلى مليوني دولار للذخيرة، أي ما يعادل خمسة ملايين دولار في السنة. أما الشاه فقد قدم مساعدة أكبر. وبلغ المجموع الإجمالي للمساعدات

(❖) لم يكن هناك اجتماع رسمي. ولأسباب تتعلق بالأمن، نقلت التوصية باليد للمسؤولين الكبار: معاون وزير الخارجية، نائب وزير الدفاع، رئيس هيئة الأركان المشتركة، إضافة إلى مدير وكالة المخابرات المركزية (CIA). وكان لكل من هؤلاء الحق بالاعتراض لكنه لم يفعل. لجنة بايك علقت أهمية كبيرة على عدم عقد اجتماع رسمي، رغم أن ذلك لن يفرز نتيجة مختلفة بالتأكيد.

كافـة التي قدمها الإسرائيليون والبريطانيون والإيرانيون للأكراد مقدار مليون دولار في الشهر، وهو مبلغ زهيد تبعاً لمقاييس الحرب الباردة.

بينمـا كنا نناقش الحكمة من المشاركة الأمريكيـة، طرد الجنود والخبـراء السوفييت من مصر في تمـوز/ يوليـو 1972. وهذا ما عزز أهمية العـراق بالنسبة للاستراتيجية السوفييتيـة في الشرق الأوسط، وأعطـى موسكـو باعثـا إضافيا لتقويـة علاقاتها مع النظـام الحاكم في بغـداد. وفي أواخـر شهر آب / أغسطـس، استحث ميخائيل سوسلوف، عضو المكتب السياسـي للحزب الشيوعي، استحث البرزاني على الانضمام لحكومة وحدة وطنية جديدة يعرض صدام حسين تشكيلها. وتبعا للبرزاني، حذر سوسلوف من أن الاتحاد السوفييتي، بعد طرد الخبراء السوفييت من مصر، يولي أهمية أكبر لعلاقاته مع العراق وسوف يزيد حجم الدعم للحكومة العراقية. وبدا من الواضح أن الرهانات قد ارتفعت.

علـى صعيد حلفائنا، التقى الشاه والملك حسين في قصـر الشاه على بحر قزوين في الفترة الممتدة بيـن 31 تمـوز / يوليـو و2 آب / أغسطس 1972. رحب الاثنـان بالدعم الأمريكي وبـذلا مساعيهما لوضع المبـادئ الأساسيـة للجهد المشترك. وحذرا البرزانـي من القيام بأية تحـركات دراماتيكية، مثل إعلان إنشاء دولة كردية منفصلة، يمكن أن تدفع الحكومة العراقية لشن هجوم شامل عليه. بينما ركزا الاهتمام على تقوية وتعزيز القدرات الدفاعية الكردية للحفاظ على أقصى حد من الحكم الذاتي.

تصاعـدت حدة القتـال طيلة عام 1973، وتزايدت بالتالي طلبات الأكـراد بتقديم الدعم المالي. فـي التاسـع والعشرين من آذار / مارس 1973، أيدت طلبـا تقدمت به وكالة المخابـرات المركزية (CIA) ووقعـه جيم شلسنجر خلال الفترة الوجيزة التي استلم فيها منصب مدير الوكالة، للحصول علـى مـوارد إضافية، ووافق علـى الطلب نيكسون فيما بعـد. أما مذكرتي فقد قدمـت الحجة على أن العـراق قد أصبح عميلا سوفييتيا رئيساً في الشرق الأوسط؛ وأن حكومة البعث برئاسة صدام حسين مستمـرة في تمويل المنظمات الإرهابية التي تنشـط في مناطق بعيدة تصل حتى باكستان؛ وأنه يمثل القوة الدافعة في «جبهة الرفض» التي تسعى لعرقلة مبادرات السلام العربية – الإسرائيلية. لكل هذه الأسباب، أوصيت بزيادة دعمنا المالي ليتجاوز حدود الخمسة ملايين دولار في السنة. أضاف الشاه مبلغـا ماليا أكبر بكثير، بلغ ما يقرب من الثلاثيـن مليون دولار، علاوة على استمرار دعمه اللوجستي والمدفعي (المؤلف من المدفعية الإيرانية بعيدة المدى التي وفرت الغطاء للأكراد من داخل الحدود الإيرانيـة). ومع ذلك، حـذرت نيكسون من مخاطـر تصعيد الأكراد للوضع عبـر الانتقال من موقف الدفاع إلى الهجوم:

> لربما نرغب بأن نحاول تجنب ترك الانطباع بالالتزام بالتصعيد على المدى الطويل من خلال إعلام البرزاني بأننا سنقدم هذه الأموال الإضافية لهذه السنة على أساس شهري.

لكـن علـى أية حال، يجب التأكيد علـى أننا نشارك الشاه رأيه فيمـا يتعلق بالحفاظ على الوضع الدفاعي للأكراد.

بـدا أن الدعـم السري للأكراد في سنتـه الأولى يحقق هدفه. ففـي الخامس من تشرين الأول/ أكتوبر 1972، نقلت إلى نيكسون تقريراً من ريتشارد هيلمز مدير وكالة المخابرات المركزيـة (الذي سيصبح فيما بعد سفيراً في إيران) يعلمنا فيه أن الأكراد يشغلون ثلثي الجيش البعثي عن أداء مهماته الأخرى:

لا تجري الأمور كما يشتهيها النظام البعثي.. حفاظ البرزاني على حصن منيع آمن سوف يستمر في مشاغلة ثلثي الجيش العراقي ويحرم البعثيين من قاعدة مضمونة يمكن لفرق التخريب والاغتيالات أن تنطلق منها ضد إيران.

حيـن اندلعـت الحرب في الشرق الأوسط عام 1973، واجهتنـا بمجموعة جديدة من المشكلات. فهل يجـب أن نستغل الفرصة لتشجيـع الأكراد على الهجوم على المناطق التي تسيطـر عليها القوات العراقية لإسقـاط نظام صدام حسين؟ رفضنا اقتراحا بهذا الشأن من ضبـاط الارتباط الإسرائيليين ـ وهو قرار أثار جدلاً خلافياً في السنوات اللاحقة[2].

الانتقـاد كان نموذجـاً كلاسيكياً للبطولة بأثر رجعـي. فحين اندلعت الحرب العربيـة – الإسرائيلية، لـم يكن عمـر البرنامج السـري يزيد كثيرا عن السنـة. ولم يكن لـدى الأكراد سوى القليل مـن الأسلحة الثقيلـة؛ والمدفعية الإيرانية التي تدعمهم لا تغامر بالابتعاد عن الحدود. كان الأكراد قادرين على الدفاع عـن أراضيهم الجبلية حيث تجـد الدبابات والطائرات العراقية صعوبة في العمـل. لكن قواتهم المجهزة بالأسلحة الخفيفة لا تملك أدنى فرصة في الأرض المنبسطة خارج مناطقهم أمام الجيش العراقي الضخم المجهـز بالأسلحة السوفييتية الثقيلة والمتقدمة وبمئات الدبابات. ومما لا شك فيه أن هجوما كرديا فيما وراء المعاقل الجبلية الحصينة سوف يؤدي حتما إلى التدمير الكامل للقوات العسكرية الكردية.

هـذا ينطبق تماما علـى الوضع آنذاك، لأن العراقيين ـــ خلافا للاعتقاد الشائع آنـذاك ـ لم يرسلوا جزءا مهما من قواتهم لمساعدة العرب في حرب تشرين الأول / أكتوبر. واستمر الأكراد في مشاغلة ثلثي الجيش العراقي، كما أعلمنا هيلمز قبل سنة. ولم يكن من المفاجئ، نظرا للعلاقات العراقية المتوترة مع سوريـة ـــ الجبهة الوحيدة التي يحتل فيها العراق موقعا جغرافيا قادرا على التأثير ـ أن يرسل العراق لواء واحـدا لمحاربة إسرائيل. و «محاربـة إسرائيل» تعبير مجازي، لأن اللـواء العراقي لم يسجل رقما جديداً فـي سرعـة الوصول إلى الجبهة. فقد احتـاج إلى عشرة أيام للوصول إلى تخـوم منطقة القتال، وحتى في هـذه الحالة بقي خلف خطوط الجبهة. والخسائر الوحيدة التـي أصيب بها نتجت عن تبادل لإطلاق النار بالخطـأ مـع لـواء سعودي أمضى هو الآخـر عشرة أيام ليصل إلـى المناطق القريبة مـن خطوط القتال.

تصـادم اللواءان المترددان في الأيام الأخيرة من الحرب، ولم يكن أحدهما يعلم بوجود الآخر فأطلق كل منهما النار على الآخر ظناً منه أنه يواجه القوات الإسرائيلية بصورة مباغتة.

فكرة قيام رجال العصابات الكرد بشن هجوم عسكري ظهرت في وقت متأخر من الحرب حين انقلب مسـار المعركـة على جبهـة القتال بين مصر وإسرائيـل رأسا على عقب. ففي الخامسـ عشر من تشرين الأول / أكتوبـر، أي اليـوم التاسع من الحـرب، وفي نفس اليوم الذي صد فيـه الإسرائيليون بشكل حاسم هجوما مصريا في سيناء، تلقينا رسالة عاجلة من البرزاني يطلب فيها معرفة رأينا بنصيحة أحد ضباط الارتبـاط الإسرائيليين بشن هجـوم كردي على الأراضي العراقية المنبسطة. كان نوعا من الاقتراح الذي يميـل لتقديمـه ضبـاط الارتباط المتلهفيـن لتلميع صورتهم وتحسيـن أوراق اعتمادهم فـي وطنهم. ولم يصلنـا أي طلـب مماثل من تل أبيـب. أتت الرسالة، كما جرت العادة، من خـلال قنوات وكالة المخابرات المركزية، ولم يتردد وليام كولبي، مديرها الجديد، في معارضة أي توسيع لنطاق الحرب. وحين استشرنا الشاه، الذي كان يزود الأكراد بمعظم المساعدات والخبراء، أيد رأي كولبي. وقدم الحجة على أن الأكراد ليسـوا مسلحين بما يكفي للقيام بعمليات هجوميـة، خصوصا في السهول والأراضي المكشوفة. والاقتراح الإسرائيلي يخاطر بالخسارة الكاملة لـ «الورقة الكردية».

وافقت على ذلك، إضافة إلى أنني اعتبرت أن من غير الحكمة ربط الأكراد بشكل سافر بالمخططات التكتيكيـة المفضلة لـدى إسرائيل، وبالتالي جعل الأكراد ـ المتهمين أصلا ـــ هدفا لغضب الدول العربية الأخـرى. وبموافقة الرئيس نيكسون، بعثت الرسالـة التالية للبرزاني في السادس عشر من تشرين الأول/ أكتوبر:

> نحـن لا نعتبـر ـ أكرر: لا نعتبر ـــ أن من المستحسن والأصـوب بالنسبة لك شن الهجوم العسكري الذي اقترحه عليك الإسرائيليون.
>
> كان أي قـرار آخـر سيخاطر بتدميـر الأكراد من دون مساعدة إسرائيـل. تلقى البرزاني رسالتي في نفس اليوم الذي كان فيه الجنرال شارون يعبر قناة السويس بقواته المدرعة. وبعد ستة أيام، تم التوصل لاتفاق بوقف إطلاق النار في حرب الشرق الأوسط.

نهاية الحكم الذاتي الكردي

مـع تزايـد توجه أنور السادات العلني نحو الولايات المتحدة في أعقـاب حرب تشرين الأول / أكتوبر، تعاظم تركيز السوفييت على العراق. فقد بدأت موسكو لأول مرة بتزويد صدام حسين بالمدفعية الثقيلة. ممـا أدى إلـى تثوير الاستراتيجية العراقيـة المتبعة ضد الأكراد. فحتى عـام 1973، كان الجيش العراقي يشـن حملـة في المناطق الجبلية مع قدوم الصيف ثم ينسحب إلى السهول مع بداية الشتاء. لكن في شتاء 1973 ـــ 1974، ولأول مرة، بقي الجيش العراقي في المواقع التي استولى عليها خلال هجوم الصيف وقام

بتحصينها. وهذا يعني أن حملة الصيف التالي سوف تبدأ من مناطق أكثر عمقا داخل الأراضي الكردية؛ ومـن الواضح أن العراقيين كانوا يسعون لإنهاك المعاقـل الكردية الحصينة من خلال حرب الاستنزاف. وسببـت هـذه الاستراتيجية مزيدا من القلـق لأن المدفعية السوفييتية الثقيلة مكنـت الجيش العراقي من محاصرة المواقع الكردية الحصينة التي تعذر حتى الآن اختراقها.

فـي الحادي عشر من آذار/ مارس 1974، بعد أربع سنـوات تماما من عرض العراقيين الأصلي بمنح الأكراد الحكم الذاتي، أعلنوا خطة جديدة لحكم المنطقة الكردية. وفي حين تملقت الخطة الحكم الذاتي، إلا أنهـا اقترحت في الحقيقة تشديد قبضة السيطرة السياسيـة العراقية. ونظرا لأن رفض البرزاني كان أمـرا محتومـا، فقد بلغ اقتراح بغداد حد الإنـذار النهائي. ومع استئناف الأعمـال الحربية، احتدمت من جديد النقاشات الجدلية السابقة كافة حول السياسة الكردية في واشنطن:

- ❖ حـذر الشـاه مـن أن هزيمة الأكراد سـوف تزيل أحـد أثقال التـوازن داخل العـراق وتزيد النفوذ الراديكالي والسوفييتي في المنطقة، وتضاعف خطر التهديد للخليج وإيران.
- ❖ أسهمـت إسرائيـل بقوة في القضية بدعواتهـا لتقديم دعم إضافي للأكـراد؛ وأثارت غولدا مائير المسألـة على نحو خاص في عدد من المناسبات التي التقينا فيها خلال الرحلات المكوكية التي أدت إلى اتفاقية الفصل بين القوات في مرتفعات الجولان في أيار/ مايو 1974.
- ❖ كان البرزانـي على أتـم الاستعداد لالتقاط القفاز وقبول التحدي. فقـد فسر انهيار المباحثات مع بغداد باعتباره فرصة لتخفيف صرامة القيود التي فرضها حلفاؤه وترسيخ سلطته بطريقة ما زال يعتبرهـا بمثابة حكم ذاتي لكـن يتعذر في الجوهر تمييزها عن دولة منفصلة. في السادس عشر مـن آذار/ مارس 1974، عرض علينا البرزانـي خيارين اثنين لضمـان استراتيجيته المقترحة: 180 مليـون دولار للاستقـلال الذاتـي التام؛ أو 360 مليـون دولار لإقامة ما دعـاه بالبنية التحتية «المناسبة» للاستقلال.

كان البرزانـي خاضعـا لدافـع وحيد يركز عليـه كل اهتمامه. وهو دافع ما كان بمقـدور أحد النضال فـي سبيل الاستقلال لولاه. هذا النضال الكفاحي تخوضه الشعـوب ضد قوى متفوقة، لكنه يستمر ويتعزز بواسطـة إيمـان استثنائي بالقضيـة، نوع من تجاهل وتناسـي الحسابات العادية لتـوازن القوى. ورغم أن الحماس والإلهام قادران في أحيان كثيرة على تعويض غياب الموارد المادية، إلا أن هناك حدا موضوعيا لا يمكـن للإخلاص والتفاني تجاوزه أو تعديلـه. لن تحظى نسخة البرزاني من الحكـم الذاتي بدعم شاه إيـران أبدا (أو تركيا فيما يتعلق بهـذا الأمر). ولم تكن الولايات المتحدة في موقع يؤهلها لتقديم الأموال التي طلبها. حتى رقم الحد الأدنى الذي وضعه يتجاوز الميزانية الكلية المخصصة للعمليات كافة السرية التـي تقوم بها الولايات المتحـدة. لكن كونغرس عام 1974، الذي كان يقتطـع بشكل منهجي مخصصات

الهنـد الصينيـة فـي ذروة قضية «ووترغيـت»، سوف يرفض بالتأكيد طلـب التمويل العلنـي لشن حرب عصابـات واسعة النطاق في جبال العراق قرب الحدود السوفييتية. وسوف يكون من التهور محاولة إقناع وحـث الشـاه، الذي تشترك بلاده بحـدود طويلة مع الاتحاد السوفييتي، بالتدخل بشـكل سافر في أراضي أقرب حلفاء الاتحاد السوفييتي إليه.

أطلـق طلـب البرزاني سيلاً دافقاً من الاتصـالات من كولبي تحذر من مغبة زيـادة الدعم الأمريكي. وكان إحجـام كولبـي وحماس البرزاني على نفس القدر من عدم الواقعية. فقد اتفق كل المراقبين على أن البرنامـج الحالي، على ضوء الاستراتيجية العراقية الجديدة، لم يكن كافيا حتى للدفاع. وبحكم منصبي مستشـاراً لشـؤون الأمن القومـي، ضغطت من أجل زيـادة المساعدات للأكراد، وطلبـت من ديك هيلمز وبرنت سكوكروفت تقديم اقتراح بهذا الخصوص.

فـي أوائل شهـر نيسان/ أبريل 1974، عرض هيلمز وسكوكروفت ما استخلصـاه من نتائج، تضمنت توصيـة بمضاعفـة الموارد الحالية: زيادة الإسهام السرية الأمريكية مـن خمسة إلى ثمانية ملايين دولار بينمـا يوفر الإسهام العلني مليونا آخر لإغاثة اللاجئيـن. ووافق الشاه على زيادة حصته في البرنامج من ثلاثيـن إلى خمسة وسبعين مليون دولار فـي السنة؛ وحافظت كل من بريطانيا وإسرائيل على مساعدتهما عند مستوياتها الحالية.

ومـن أجـل المساعدة على صياغـة استراتيجيـة مشتركة، إن لم يكـن ثمة هدف مشتـرك، أصدرت التعليمات لهيلمز بإعلام الشاه والبرزاني بما يلي:

> المصالـح الأمريكيـة كما نراها هي: أ) تزويد الأكراد بالقـدرة على الحفاظ على أساس معقـول للتفاوض ودفـع حكومة بغداد للاعتراف بحقوقهم؛ ب) إبقـاء الحكومة العراقية الحاليـة منشغلـة بالمسألة الكردية؛ ج) لكـن دون تقسيم العراق بشـكل دائم لأن إقامة منطقة كردية مستقلة لن يكون ممكنا من الناحية الاقتصادية، كما لا توجد مصلحة لدى الولايـات المتحـدة وإيران في إغلاق باب العلاقات الحسنة مـع العراق تحت حكم قيادة معتدلة.

كما وجهت تعليمات مشابهة إلى كولبي

ادعى الجميع موافقتهم على الأهداف، لكن تفسيرات مختلف اللاعبين تفاوتت تفاوتاً كبيراً طيلة عام 1974. فوكالـة المخابرات المركزية، التي أنيطت بهـا مسؤولية التنفيذ من الجانب الأمريكي، ترددت في تنفيـذ البرنامـج الجديد؛ والشاه استهـدف الإبقاء على الوضع الدفاعي كما هـو؛ والبرزاني سعى لإحراز النصر بموارد بالكاد تكفي للدفاع عن معاقله الحصينة.

المشكلـة في استراتيجية كولبي تمثلت في كونها مصممة بهدف تجنب مضايقة لجان الكونغرس أكثر مـن ملاءمتهـا للوضع الميداني على الأرض؛ أما المشكلة في استراتيجية البرزانـي فكمنت في استحالة تحقيقها بدون شن حرب نظامية، وليس بواسطة حرب العصابات؛ في حين كانت المشكلة في استراتيجية البيـت الأبيض والإيرانيين متجسدة في الحاجة إلى الإبقاء على الوضع الحالي للحكم الذاتي الكردي إلى الأبـد تقريبا، في حين يصعب الإبقاء على الوضع الراهن بواسطة العمليات السرية غير المعلنة ضد عدو مصمم وعنيد.

لقد جعل سلوك الأكراد تقويمَ حاجاتهم الفعلية أمرا صعبا في كل المراحل. ففي بعض الأحيان يبدون يائسيـن وفي أمسـ الحاجة للعون، وفي أحيان أخـرى تبدو عليهم البهجة بالانتصـار. على سبيل المثال، نقـل إلينـا الشاه فـي السابع والعشرين من تمـوز/ يوليـو 1974، التماسا عاجلا مـن البرزاني يطلب فيه المساعـدة، وأرفقـه بتحذير منه يتعلق بالعواقب الوخيمـة ـ بالنسبة لإيران والخليـج برمته ـ إذا انهارت المقاومة الكردية.

لكـن بعد بضعة أسابيع (في أوائـل أيلول / سبتمبر) اقترح البرزاني القيـام بعمليات هجومية كردية ضـد حقول النفط فـي كركوك. رفضنا الاقتراح فـي الثامن عشر من أيلول / سبتمبـر لأننا لم نكن نريد أن تتفاقـم أزمـة الطاقة ـ الخطيـرة أصلا ـ عبر دورة من العنف تستهدف المنشـآت النفطية في الشرق الأوسـط. لكن ضغـوط البرزاني من وقـت لآخر من أجل شـن الهجمات آزرت حجـة المعارضين لتقديم معونـات إضافية للأكراد على أساس الزعم بأنهم يمتلكون حتما ما يكفي من الموارد للدفاع عن معاقلهم إذا كانوا يضغطون في سبيل الحصول على أسلحة إضافية لشن هجوم كبير.

نظريـا، كان صيـف عام 1974 وقتـا مثاليا لمراجعة الوضـع. لكن ظهرت عقبتان اثنتـان. فالمراقب الخارجي وحده القادر على التفكير في الأحداث بعد التحرر من قيود الزمن. كان صيف عام 1974 متخما بالأزمـات، والعديـد منها يدعونا لتركيـز الانتباه: ففي أيـار/ مايو، الرحلات المكوكية إلـى سورية؛ وفي حزيـران / يونيو، الزيارات الرئاسيـة إلى الشرق الأوسط والاتحاد السوفييتـي؛ وفي تموز/ يوليو، الأزمة في قبرص؛ وفي آب / أغسطس، استقالة نيكسون؛ وبعد ذلك، الفترة الانتقالية، قبرص، الانفراج، انهيار اتفاقيـة التجارة، المأزق الدبلوماسي في الشرق الأوسط، وأخيرا ذروة المأساة في الهند الصينية. إذ لم تكن هناك فسحة متاحة من الوقت لإجراء مراجعة منهجية للخيارات في المناطق الكردية النائية.

لكـن حتى لو لم يواجه صناع القرار السياسي أي تحد آخـر، أشك بأنهم سيكتشفون خيارا أفضل من استمـرار البرنامج. فلو لم ننشئ البرنامج السري في عام 1972 لانهزم الأكراد بسرعة كبيرة. لقد زودنا العقـدان الأخيران بفرصة مناسبة لنتعـرف على أساليب صدام حسين ونزيل كل الشكوك حول حقيقة أن استسـلام الأكـراد ما كان ليحسن مصيرهم. بحلول صيف عام 1974، لم يطرأ تحسن على خياراتنا. ولو

قبلنـا بنصيحة وكالة المخابرات المركزية ولم نقدم أية مـوارد إضافية، لانهار الأكراد بالتأكيد. لم نكن نملـك خيـار الدعم العلني في حرب على هذا القدر من الصعوبة اللوجستية، والمسافة النائية، والالتباس بالنسبـة للرأي العـام الأمريكي. فالنصر الذي سعى البرزاني لتحقيقـه كان يتطلب تدخلا إيرانيا سافرا ومدعوما من الولايات المتحدة. لكن فتح جبهة جديدة، مع التداعي والانهيار في فيتنام، والوضع المحفوف بالمخاطـر في الشرق الأوسط، وتعرض الانفـراج في العلاقات بين الشرق والغرب للهجوم، سيكون عملا طائشا يغامر بمصير حليف، علاوة على رفضه الأكيد من قبل الكونغرس.

حيـن شرحت للرئيس الجديـد تفاصيل العملية الكردية فـي السادس والعشرين مـن آب / أغسطس 1974، أعلمتـه بـأن الشاه يفكر بإرسال قوات نظامية (كان لديه مستشـارون ومساعدون موجودون هناك يتنكـرون بالزي الكردي). لكنني حذرت من أن هذا العمـل، مهما كان مغريا، سيكون مفتوح النهاية وبالغ الخطورة. وكنت أميل إلى تناسي الموضوع، إلا إذا وجه الرئيس تعليماته بخلاف ذلك، لكنه لم يؤيده.

حوصرت في خضم تيارات متلاطمة ومتقاطعة، ولذلك عثرت على وسيلتين نافعتين كحل مؤقت للمعضلة. فقـد خصصنـا مساعدات مالية ــ اقتصادية علنية لإغاثـة اللاجئين الأكراد. وفي السادس والعشرين من آب / أغسطس، وافق فـورد على خطة كنت أقوم أنا والسفير الإسرائيلـي سيمحا دينيتز بتطويرها منذ عدة أسابيـع. والخطـة تقوم على نقل المعدات السوفييتية التي غنمتهـا إسرائيل في حرب عام 1973 إلى الأكراد. وسوف نعوض إسرائيل بالأسلحة الأمريكية المماثلة (تحولت العملية إلى كابوس بيروقراطي تطلب شهورا من المفاوضـات بيـن الوكالات والمؤسسات المعنية). في النهاية، تم نقل مـا قيمته 28 مليون دولار من المعدات السوفييتية إلى أن نفدَ ما لدى إسرائيل من أسلحة سوفييتية تناسب الحرب في المناطق الكردية.

بحلول خريف عام 1974، ومع اشتداد زخم الهجوم العراقي على الأكراد، تلقينا بشكل متزايد طلبات كرديـة عاجلة لتقديم معونات إضافية، صادق عليها الشاه في أغلـب الأحيان. لكن كل الطلبات عارضتها وكالـة المخابـرات المركزية. على سبيل المثال، ذكر كولبي في الثاني والعشرين من أكتوبر 1974 أن أكثر خطـوط الإمداد كفـاءة بين إيران والأكـراد ومركز قيادة البرزانـي يتعرض للتهديد. ومـع ذلك، أوصى «بعـدم زيـادة مستوى الدعم الذي نقدمـه» لأن ذلك سيعرض سريـة العملية للخطر، كأنمـا السرية أكثر أهميـة من ورطة الأكراد: «يبلغ إجمالي مساعدتنا للبرزانـي خلال السنوات المالية 1973، 1974، 1975، مقدار عشرين مليون دولار، كما شملت 1250 طناً من الذخائر والقذائف.. الإيرانيون قادرون على تقديم كل مـا يحتاجه الأكراد من عون، وتوصـي الوكالة بأن يترك أمر زيادة العون للأكراد إلى الإيرانيين». لكن إذا تجاوز الشاه كثيرا مبلغ 75 مليون دولار من المساعدات التي يقدمها الآن، فلسوف يواجه نفس مشكلة إسرائيـل. وإذا لـم نقدم أسلحـة بديلة، فسوف يضعف قواتـه المسلحة ذاتها. لكـن إن فعلنا، سوف نجد أنفسنا في معركة يائسة مع الكونغرس.

انهيار المقاومة الكردية

عند هذه المرحلة، حين كان العراق يحقق تقدما بطيئا لكن مطردا، قرر الشاه فجأة وبدون سابق إنذار أن ينسحب من اللعبة. فقد شهد سنتين من التدهور المستمر للسلطة التنفيذية في الولايات المتحدة. لم يعترض على أي من قراراتنا المتعلقة بتقديم العون للأكراد، ربما لأنه خشي من أن تضعف المبالغة في التعبير عن شكوكه حول ثباتنا وتصميمنا العلاقة التي أسس عليها أركان أمن بلاده. لكن قطع التمويل عن الهند الصينية في هذه اللحظة بالضبط لا يمكن أن يشجع الشاه على المخاطرة بتوريط بلاده في حرب سافرة مع العراق، وهي خياره الوحيد المتبقي، أو تجاهل حدوده الطويلة مع الاتحاد السوفييتي دون تطمينات قاطعة وتأكيدات صارمة من جانب الولايات المتحدة، وهي تطمينات وتأكيدات لم نكن في موقع يؤهلنا لتقديمها.

لذلك قرر الشاه تغطية الانسحاب بعباءة فن الحكم. ففي اجتماع عقده معي في زيوريخ في الثامن عشر من شباط / فبراير 1975، عند نهاية رحلاتي المكوكية «الاستكشافية» في الشرق الأوسط، أعلمني دون سابق إنذار أنه يستكشف إمكانية إجراء مفاوضات مع صدام حسين. نقلت الأمر إلى فورد:

> «الشاه» يخطط، رداً على عرض عراقي، للاجتماع برجل العراق القوي، صدام حسين. وقال إنه لا يمكن أن يقبل بدولة كردية متمتعة بالحكم الذاتي وخاضعة لهيمنة حكومة العراق المركزية الشيوعية. وهو يشتبه بأن العراقيين سوف يثيرون بعض الحوادث على طول الحدود العراقية – الإيرانية التي قد تؤدي إلى تدويل المسألة الكردية، وعرضها أمام مجلس الأمن، الأمر الذي يعتبره ضاراً. باختصار، يبدو أنه عرضه لإغراء محاولة التحرك باتجاه بعض التفاهم مع العراق فيما يتعلق بالأكراد، لكن من المفهوم أنه يشكك بإمكانية ذلك. وينوي في هذه الأثناء الاستمرار في دعمه للأكراد.

ذكّرت الشاه بتحذيراته المتكررة من أن انهيار الأكراد سوف يزعزع استقرار المنطقة برمتها. وحذرته من أن كل التأكيدات التي يقدمها صدام حسين فيما يتعلق بحكم المنطقة الكردية ستكون لا قيمة لها. ونظرا لأن السوفييت سوف يعتبرون تراجع إيران رمزا دالا على تنامي ضعف الغرب، فإن مغامراتهم ستزداد على الأرجح حتى على تلك الجبهة.

ثبت أن النقد القاسي الذي وجهته كان أكاديميا ولا علاقة له بالممارسة العملية. ونظرا لأن الأكراد غير قادرين على الاستمرار اعتمادا على البرنامج السري، فإن متابعة الكفاح قد تطلب نوعا من التدخل الإيراني العلني مدعوما من قبل الولايات المتحدة. أما ما يلزم لتحقيق هذا المشروع حسب التقديرات فكان فرقتين عسكريتين إيرانيتين وميزانية سنوية بحدود 300 مليون دولار. ولم يكن الإيرانيون يحتاجون إلا إلى إلقاء نظرة على ما تنشره وسائل إعلامنا حول الهند الصينية ليعرفوا حقيقة عدم وجود تأييد داخلي من أي نوع كان لمثل هذه السياسة.

فـي الثانـي والعشرين من شبـاط / فبراير، وبعد وقت قصير من لقائي مع الشـاه، أعلمت دينيتز بما يلي:

> يخشى «الشاه» من أن يكون الكرد في حالة إنهاك شديد. وقد يبدأ مفاوضات مع العراقيين إذا التقى الجانبان في اجتماع أوبك، في مقابل الحق بالاعتراض على من يعينونه إذا ما طرد البرزاني. حذرته بقوة من مغبة القيام بذلك.

فـي التاسع من آذار/ مارس، شرحت الأمر بالتفصيل لرابين بعد إعـلان الاتفاقية التي توصل إليها الشاه وصدام حسين:

> فـي زيوريخ، أخبرني عـن الأمر بطريقة افتراضيـة. قال: «إذا قابلت صـدام حسين في الجزائـر «في اجتماع أوبك»..». وضعها أمامي كفكرة، كشفتها وأكدتها الاتفاقية. قلت له مشددا على أنها فكرة سيئة ـ خصوصا تصديقه تأكيدات العراقيين بعدم تعيين شيوعي هناك «في منطقة الحكم الذاتي الكردية».

لـم يذكر الشاه أن الصفقة كانت وشيكة أو أنه سيقبـل بسيطرة عراقية كاملة على المنطقة الكردية. ونتيجـة لذلك، بقيت مستمرا في تشجيع البرزاني. فـي العشرين من شباط / فبراير، بعثت إليه برد على رسالته التي يقترح فيها إجراء لقاء شخصي بيننا:

> أسعدنـي تلقـي رسالتك المؤرخة ب ـــ 22 كانون الثانـي/ يناير. أريـدك أن تعرف بأننا معجبـون بك وبشعبك وبالجهود الباسلة التـي تبذلها. فالصعوبات التي واجهتها مرعبة، وأنـا أقدر كثيـرا تقويمك للوضع العسكري والسياسي. ويمكنـك التأكد بأن رسائلك تنال أقصى قدر من الاهتمام الجدي على أعلى المستويات في حكومة الولايات المتحدة بسبب الأهمية التي نعزوها إليها.

إذا رغبـت بإرسـال مبعـوث موثوق إلـى واشنطن لتقديم مزيد مـن المعلومات حـول الوضع لحكومة الولايات المتحدة، فسوف يشرفنا ويسعدنا استقباله.

وبعـد أكثـر من أسبوعين بقليل، أي في السادس من آذار/ مارس حين كنت أستعد للقيام بالرحلات المكوكيـة فـي الشرق الأوسط الذي وصلت فيه المفاوضات إلى طرق مسـدود، أذهلنا الشاه بالبيان الذي أعلـن فيـه التوصل إلى اتفاقية مع صدام حسيـن يتخلى بموجبها عن الأكراد في واقـع الأمر. أغلق الشاه حـدوده وأوقف المساعدات كافـة للأكراد مقابل بعض التنازلات العراقية في شـط العرب؛ الممر المائي الذي يعين الحدود الإيرانية العراقية.

علـى الصعيـد الإنسانـي، كان تصرف الشاه وحشيـاً ولا يمكن الدفاع عنه. لكن فيمـا يتعلق بالتقويم الواقعـي لأمـن إيران، يمكن تفهم قراره مهمـا كان مؤلما. التدخل الإيراني السافـر وحده هو القادر على إنقـاذ الأكـراد الآن، ومن المؤكد أن التكاليف ستتجاوز مبلغ الـ 360 مليـون دولار الذي طلبه البرزاني في

عـام 1974. ولـم تكن الولايات المتحدة، وقد انشغلت بالتخلص من إسار الهند الصينية، قادرة حتى على التفكيـر بفتح جبهة عسكرية جديدة، بل إن من المشكوك فيه حصول الفكرة حتى على الغطاء السياسي، نظرا لموقف الكونغرس.

لم آبه بما فعله الشاه. ولا بأساليبه المخادعة. في العاشر من آذار / مارس، أرسلت برقية متحفظة لم أصـل فيها إلى حد المصادقة على تصرفاته، وأشرت فيها ضمناً إلى أن الشكوك تراودني حول المكاسب والفوائد التي يبدو أن الشاه يخبئها لنفسه:

فيمـا يتعلق بالمسألة الكرديـة، ليس لدي الكثير لأضيفه على ما قلته لـك شخصياً في لقائنا الأخير. هـذا أمر متروك لـك يا صاحب الجلالة كـي تقرره تبعاً لمصالـح بلدك. وتبقى سياستنـا كعهدها دائما قائمـة على دعم إيـران باعتبارها دولة صديقة ومخلصـة للولايات المتحدة. لسوف أتابـع باهتمام كبير بالطبع ارتقاء وتطور العلاقات العراقية ـ الإيرانية، والسياسة العراقية في منطقتكم عموما وتجاه الاتحاد السوفييتي على وجه الخصوص.

حين انتهى كل شيء، هاجم أبطال المواجهة (بمفعول رجعي) إدارة الرئيس فورد بكل عنف ـ وتوجهت سهامهـم إلـي على وجه الخصوص ـ بسبب «التخلي» عـن الأكراد. لكن الشاه اتخذ قراره، ولم نكن نملك لا حججـاً منطقيـة ولا استراتيجيات معقولة لإقناعه بالعدول عنه. أما الحـل الذي اقترحه بعض منتقدي سياستنـا (تهديـد الشـاه بقطع المساعدات) فليس لـه أي معنى منطقي. فكيف يمكـن أن نستحث حليفا رئيسيا لبدء عمليات عسكرية بدون دعم منا ـ وهو الخيار الوحيد حين كان الكونغرس يتخلى عن الحلفاء والسكين على أعناقهم؟

فالأحـداث التي وقعت منذ سقوط الشاه أثبتت صوابية حكمنـا بأن إيران الصديقة دولة لا غنى عنها تقريبا للتوازن الإقليمي والعالمي على حد سواء. وكان من الطيش والتهور وعدم المسؤولية زعزعة استقرار دولـة حليفـة أخرى عبر شن هجـوم سياسي على الشاه أو قطـع المساعدات عن إيران. لـم يكن التزامنا بالدفاع عن إيران منة يمكن التراجع عن تقديمها حين نغضب، بل هو تعبير عن مصالحنا الجيوسياسية. لذلـك توجـب علي أن أكون شاهداً على استعبـاد شعب صديق آخر، وأنا مدرك بـأن أزمتنا الداخلية التي أصابتنا بالشلل كانت عاملاً أسهم فيما حدث، برغم إمكانية استخدام تصرف الشاه كذريعة تبريرية.

مـع انهيار المقاومة الكردية، بدأت مناورة واشنطن النمطيـة المعتادة التي تستهدف توزيع اللوم. إذ كان كولبـي أول مـن تحدث. في الثالث عشـر من آذار/ مارس، مستغلاً مناسبـة طلب البرزاني المحموم للحصـول على مساعـدة أمريكية مباشرة ليقترح فصل وكالة المخابـرات المركزية عن المشروع برمته. ولأن السياسـة الأمريكيـة اقتضت تقديم العون عن طريق إيران، كما كتب كولبي، فإنه من الصعب الدفاع عن أية مساعدات مباشرة للأكراد الآن، وقد أخذت المقاومة بالانهيار، مقارنة بحالها في السابق. وشكك

برغبة الشاه في الاستمرار بلعب دور الوسيط لتوصيل الأموال الأمريكية، بعد أن أنهى مساعداته هو إلى البرزاني. ومن أجل كسب الوقت، أصر كولبي على أن الطلب الكردي يحتاج إلى دراسة عند عودتي من رحلاتي المكوكية في الشرق الأوسط، وهو يعلم جيداً من تقاريره الاستخبارية أنه بحلول ذلك التاريخ سيكون الوقت قد فات. في هذه الأثناء، أوصى كولبي بدفع حصة الوكالة من المعونات عن شهر آذار/ مارس، نظرا لأن الأكراد عاطفيون وطائشون، وهي معونة تافهة مقارنة بحجم المأساة التي توشك أن تحل بالأكراد.

وكما حدث، لم يتمكن ممثلو كولبي في منطقة العمليات من إجبار أنفسهم على اتخاذ مثل هذا الموقف اللامبالي. وحتى هذه النقطة، كانوا بدون استثناء يعارضون تقديم أية مساعدات إضافية إلى الأكراد – أو على الأقل هذا ما نقله كولبي إلى البيت الأبيض.

لكن مع قيام صدام حسين بشن هجوم شامل على الأكراد، شعر ممثلو وكالة المخابرات المركزية فجأة بالمأساة المروعة التي تكشفت حولهم. وحين كنت في جولتي المكوكية في الشرق الأوسط، نقلوا إلي طلبات العون اليائسة من الزعماء الأكراد متبوعة بالعديد من الملاحظات التوبيخية عندما لم يستجب أحد لها. ومثلما حدث في الهند الصينية، إذ كان إلقاء المسؤولية على الآخرين هو عنوان اللعبة، وكان مكتبي هو المكان المختار لكي يتحملها. إن أية زيادة إضافية في المساعدات الأمريكية التي وصلت إلى الأكراد كانت نتيجة للضغوط التي مارستها لمغالبة معارضة وكالة المخابرات المركزية طيلة سنة كاملة. أما السبب الذي دفعني الآن لعدم الاستجابة للصرخات اليائسة المطالبة بمد يد العون فيرجع إلى عدم وجود ما أقوله، فليس من الممكن تقديم أي معونة طارئة والحدود الإيرانية مغلقة أمامنا.

انتهت الأزمة الكردية نهاية حزينة، كما حصل مرة أخرى بعد عشرين سنة لأسباب أقل وجاهة: المنطقة الجغرافية الوعرة، وتناقض الدوافع لدى الدول المجاورة، البواعث المتعارضة داخل المجتمع المحلي الكردي ذاته. أما أولئك الذين تحدثوا فيما بعد، مدفوعين بمبادئهم الأخلاقية القويمة، عن «المصلحة الذاتية» و«الخيانة» ـ بعد أن التزموا الصمت، أو فعلوا أسوأ من ذلك، إزاء المأساة الأشد ترويعاً في الهند الصينية ـ فلم يقدموا قط مسارا بديلاً كان بمقدورنا في الحقيقة اتباعه.

وباعتبارها «دراسة حالة»، تقدم المأساة الكردية تشكيلة متنوعة من النتائج المستخلصة: الحاجة لتوضيح الأهداف منذ البداية؛ وأهمية وصل الغايات بالوسائل المتاحة؛ وضرورة مراجعة العملية بشكل دوري؛ وأهمية الانسجام واللحمة بين الحلفاء. كل هذه القواعد الأساسية جرى اتباعها من وقت لآخر، وإن لم يكن بالقدر المطلوب من العناية. لكن ثبت أن تطبيقها على الحالة المعنية كان عملية صعبة ومراوغة.

لم نتمكن لأسباب متعددة من إنتاج الموارد المطلوبة للنجاح، لكننا بقينا غير مستعدين لمواجهة عواقب التراجع والتخلي عن المشروع. لذلك جهدنا للإبقاء على الوضع العسكري كما هو وإنهاك

عدونـا بالتدريج. لكن ما لم يكـن بمقدورنا معرفته عند انطلاق المشروع الكـردي هو المدى الذي يمكن للاضطراب والاختلاف في الداخل أن يضعف قدرتنا على الاحتمال. وحتى من منظور العقدين الأخيرين، تقلصـت رغبتـي ببدائـل المسار الذي اخترنـاه. فلو رفضنا القيـام بالعملية الكردية عـام 1972، وتركنا العراقييـن أحـرارا لكي يركـزوا جهودهم على الخليج، لتغيـر تماما المسار اللاحـق للدبلوماسية الشرق أوسطية، خصوصا خلال وبعد حرب تشرين الأول / أكتوبر 1973. لكن بالنسبة للشعب الكردي، الضحية الدائمة للتاريخ، لا يقدم ذلك أي عزاء بالطبع.

opeikandl.com